شكوى الى الله

وداع ...

هذه خطبة معلم فرقوا بينه وبين أولاده تودعهم بها وودعاهم وبكاهم ، وإنى لآسف أن يكون فى صاحبنا المعلم الأديب هذا الضعف وهو يدعو إلى أدب القوة ، ولـكن ما ذا يصنع ؟ أليس له قلب ؟ أليس بإنسان ؟ . . .

أولادى !

انتظروا ! لاتخرجوا كتبكم ، ولا تفتحوا دفاتركم ، فما جئت لألقى عليكم درساً ، وإنما جئت لأودعكم . إن الوداع صعب يا أولادى لأنه أول الفراق ، وما آلام الدنيا كلها إلا ألوان من الفراق : فالموت فراق الحياة ، والثكل فراق الولد ، والغربة فراق الوطن ، والفقر فراق المـال ، والمرض فراق الصحة . . .

إن الوداع صعب ولو الى الغد ، فكيف إن كان المودَّع صديقاً عزيزاً ، فكيف إن كان ولداً ، فكيف إن كانوا أولاداً ؟

أنتم أولادى ، أولادى حقيقة لا أقولها مجاملة ولا رياء ، ولا أسوقها كأنها كلمة تقال ، ولكن تنطق بها كل جارحة فى ، وأحسها من أعماق قلبى !

ولِمَ لا ؟ ألستم تحبوننى وأحبكم ؟ ألم أفكر فيكم دائماً وأخاف عليكم ؟ ألم ترونى آلم إذا تألم أحدكم ، وأثور إذا تعدى أحد عليكم ؟ ألم أفتح لكم قلبى حتى اطمأننتم إلى وأنستم بى ، وخرقتم حجاب الخوف الذى كان بينى وبينكم ، كما يكون بين كل معلم وتلاميذه ، وغدوتم تدعوننى لأشارككم فى ألعابكم ، وتقصون على أخباركم وتبثوننى أحزانكم ، وتنبئوننى بأسراركم ، وتشكون الى مايصيبكم من آبائكم وأهليكم ؟ فأى صلة بين الآباء والأبناء أوثق من هذه الصلة ، وأى سبب أقوى من هذا السبب ؟

أنتم أولادى . فهل رأيتم أباً يودّع أولاده الوداع الأخير ثم يملك نفسه أن تسيل من عينيه ؟ لقد شغلتم نفسى زماناً ، وأخذتم علىّ مسالكى فى الحيـاة ، فلا أرى غيركم ولا أفكر إلا فيكم ، وأقنع بصداقتكم هذه الخالصة المتعبة المرهقة ، عن الصداقة الكاذبة ، والود المدخول

فكيف أقدر أن أملك نفسى وأنا أقوم بينكم لألقى عليكم كلماتى الأخيرة ، ثم أمضى لطيتى لا أدرى أأراكم بعد اليوم أم لا أراكم بعد أبداً ؟ . . .

أما أنتم فاملكوا أنفسكم — لا تحزنوا ولا تأسفوا ولا تبكوا لأنى علمتكم كيف تكونون فى طفولتكم أكثر منا فى شبابنا رجولة وصبرا — ونشأتكم على القوة التى فقدناها ، والبعد عن العاطفة التى ربينا عليها ، وإنكار الألم الذى لا نزال نهرب منه ، والمغامرة التى نكرهها ونجهلها لأرى صبركم فى مثل هذا اليوم

انكم الآن تجتمعون حولى ، ولكنكم ستتفرقون فى المستقبل ، وستنتثرون على درجات السلم الاجتماعى نثراً ، وسيكون منكم الغنى والفقير ، والكبير والصغير ، والتاجر والصانع ، والموظف الكبير ، والمدير والوزير . ولكن قلبى سيتبعكم ، وحياتى ستمتد فيكم ، ومبادئى ستبقى فى قلوبكم ، لا تستطيعون أن تتناسوها ، وكلماتى سترن فى آذانكم لا تقدرون أن تتغافلوا عنها ، وستسمعونها تدعوكم باسم الواجب فى ساعات الهوى ، وباسم الحق فى جولة الباطل ، وباسم الفضيلة فى غمار اللذة . فطوبى لمن لبّى وسمع واستجاب ، وويل لمن نسى وأنكر وأعرض واستكبر !

إننى لقنتكم مبادئ الحق والفضيلة ولكنكم ستجدون فى تطبيقها عناء كبيراً ؛ ستجدون أول خصومها معلميكم فى المدرسة وأهلكم فى البيت ورفاقكم فى الطريق ، فالسعيد السعيد من ثبت على الحق ، وأوذى فى سبيله ؛ والبطل من درأ بصدره السهام عن أمتـه ، وأطفأ بدمه النار التى تحرق وطنه . ان فى إمتكم طاعوناً أخلاقياً مروعا أصيبت به منذ خمسمائة سنة فذلت واستكانت ، وفقدت عزتها وصبرها وقوتها ، وقد جاء الوقت الذى تبرأ فيه الأمة . انها لن تبرأ إلا على أيديكم . . .

لقد دللتكم على الطريق ، ووضعت فى أيديكم مفتاح النجاح ، فعلمتكم فضائلى كلها مع ما عرفت من فضائل ، وجنبتكم نقائصى كلها مع ما عرفت من نقائص ، فاحترمتكم لتحترمونى ، وأخطأت أمامكم لتردونى ، ورجعت عن خطئى لتتعلموا منى ، وأنصفتكم من نفسى لتنصفوا الناس من نفوسكم ، وعلمتكم معارضتى إذا جرت لتتعلموا المعارضة لكل جائر ، ولم آت

فى ذلك بدعا . فهذه مبادىء الاسلام الذى علمتكم اتباع سبيله ، والوقوف عند أمره ونهيه والفخر به ، والجهر باتباع شعائره ، وربيتكم على الطاعة فى غير ذل ، والعزة فى غير كبر ، والتعاون على الخير ، والثبات على الحق ، والقوة فى غير ظلم ؛ والنظام الكامل من غير أن يفقدكم النظام شخصياتكم واستقلالكم

كنت أذكر ما كنت أستاء منه فى المدرسة مما كان يصنع معنا معلمنا ، فلا أصنع معكم منه شيئا : كنا نفر من المدرسة لأننا لا نجد فيها إلا جباراً عاتيا ، عبوس الوجه ، قوى الصوت ، بذىء الكلمات ، فجعلتكم تحبون المدرسة لأنكم تلقون فيها أباً باسماً شفيقاً يحبكم ويشفق عليكم ، ويحرص على رضاكم كما يحرص على نفعكم

وكنا نكره الدرس لأننا نجده شيئاً غريبا ، وطلاسم لا نفهمها ولا ندرك صلتها بالحياة ، ونعاقب على إهماله ، ونجازى على الخطأ فيه ، فجعلتكم تحبون الدرس لأنكم ترونه سهلاً سائغا ، تدركون صلته بحياتكم ، وفائدته لكم ، وتحفظونه لأنه لازم ومفيد لا خوفاً من العقاب ولا هرباً من الجزاء

وكنا ننتظر المساء لننجو من المدرسة ، لأننا نسجن فيها سجنا ، لا نستطيع أن نميل أو نتلفت أو نتكلم ، ولا نسمع من الأستاذ إلا عبارة الدرس المبهمة وألفاظ الشتائم المؤلمة . فجعلتكم تكرهون المساء لأنه يفصلكم عن المدرسة التى تقولون فيها ما شئتم من طيب القول ، وتفعلون ما أردتم من صالح العمل ، وتقرأون مازلتم نشيطين للقراءة ، فاذا مللتم من الدرس سمعتم قصة لطيفة ، ونكتة حلوة ، هى أيضاً درس من الدروس ، ووجدتمونى أحادثكم كما أحادث الرجال لا الأطفال . كنا نشعر بأننا أذلاء فى المدرسة لأننا لا نقدر أن ندافع عن حقنا ، أو نطالب بما لنا ، وإذا قلنا كلمة فالعصا نازلة على رءوسنا ، أو رددنا على المعلم لفظة ، فالبلاء مستقر على عواتقنا ، فجعلتكم أعزة أحرارا ، تدافعون عن حقكم ، وتطالبون بما لكم ، ولكن بأدب واحترام ، واتباع لقوانين المجتمع وأنظمة المدرسة ...

* * *

أتذكرون يوم جئتكم كيف كان أكثركم يأتى إلى المدرسة بادية أفخاذه ، مرجلاً شعره ، فى جيبه مشطه ومرآته ، وكمته (بيريه) على رأسه . تفخرون برقتكم ، وتعتزون بجمالكم ، وتتخلعون فى مشيتكم ، ولا تجدون من معلميكم إلا إقرار ما تفعلون ، واستحسان ما تأتون ، لا تربطكم بالاسلام إلا رابطة الاسم ، ولا بالعروبة إلا صلة الجنسية ، ولا تعرفون من تاريخكم ما تعرفون من تاريخ الحثيين والآراميين الذى قرأتموه مفصلاً قبل أن تدرسوا سيرة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وقبل أن تعلموا من هو أبو بكر ، وقبل أن تسمعوا باسم معاوية . فعلمتكم أن فخر الرجل بقوته وعلمه ، واعتزازه بدينه ولغته . فاشتدت أعصابكم ، وقويت نفوسكم ، وتنبهت عزائمكم وصرتم تمشون كالأسود ، وتلعبون كالعفاريت . وتطالعون كالعلماء وتفكرون كالفلاسفة ، وتراقبون الله كالصديقين ، وصرتم وأنتم فى هذه السن تهيئون محاضرة فى عشرين صفحة عن عمرو بن العاص ، أو عبد الملك ، أو عبد الرحمن الناصر ، وسمعتم أن فى الدنيا علوماً اسلامية ، واستقر فى نفوسكم أن هذه العلوم وهذه الحضارة وهذا المجد ، لا بد لها من بعث كالبعث الأوربى (الرينسانس)

ولكنكم لا تستطيعون يا أولادى أن تفهموا التضحية التى قدمتها من أجلكم . لأنكم لم تعرفوا قبلى هذا الطراز من المعلمين ، فحسبى أن أخبركم أنى أشتغل بالأدب . أعنى أن لى نفساً تشعر وتحس ، وتألم وتسر ، وتغضب وترضى ، وتثور وتهدأ ، وتأمل وتقنط ، وأن لى غاية فى الحياة أكبر من هذه الوظيفة . وأننى أهم بأشياء غير صفارة الناوب ، وعصا التأديب ، وحفظ النكات الباردة لتقطيع الوقت بها ، ولف رجل على رجل فى عظمة جوفاء لانتظار الدرس . . .

ذلك أننى أغدو إلى المدرسة كل يوم وفى نفسى عشرات من الصور والأفكار ، أبنى منها هياكل فخمة لآثارى الأدبية القيمة التى لم أكتب منها شيئاً بعد فاذا بلغت المدرسة ونشقت هذا الهواء الملىء بجراثيم البلادة والخمول ، طار من رأسى كل شىء ، وأحسست أنى غدوت حقيقة معلماً أوليا

أجل . لقد ضحيت من أجلكم بفكرى ونفسى . . فخسرتهما من أجلكم ، وهأنذا أخسركم أنتم أيضاً

إنكم لا تعلمون أى فراغ سيدع فى نفسى فراقكم ،

وتحسبون معلمكم واحداً من هؤلاء البشر الآليين الذين يذهبون ويجيئون ويعملون ويتركون ، ولكن بلا قلوب ، فسأقص عليكم قصة وقعت لى منذ أسبوع :

كان اليوم عطلة وكنت أرقبه من زمن بعيد لأستريح فيه من هذا العناء الذى هدّنى هدّاً وطمس بصيرتى ، وبلغ بى إلى الحضيض الفكرى ، فلما أصبحت عمدت إلى المطالعة فلم أفهم شيئاً ، ووجدت شيئاً يدفعنى إلى الخروج ، فارتديت ثيابى وأنا لا أدرى أين أقصد ، فاذا أنا أمشى فى الطرقات التى أمشى فيها كل يوم . وإذا رجلاى تقودانى إلى المرجة حيث ركبت السيارة إلى حىّ السبفح (المهاجرين)[1] إلى باب المدرسة . هنالك انتبهت ، وعدت إلى نفسى ، فاذا أنا لم أقدر أن أعيش يوماً واحداً بعيداً عنكم ، وإذا صوركم وبسماتكم الحلوة ، وشيطنتكم البريئة ، وصداقتكم الخالصة ، وأصابعكم الممدودة للسؤال قيد بصرى حيثما ذهبت !

ولكن لا عليكم منى يا أبنائى ، لا تفكروا فىّ ولا تحملوا همّى ، بل فكروا دائماً فى مبادئ علمتكم إياها ، واذكروا فى المستقبل أنى كنت أستاذكم ، وأنكم أحببتمونى وأحببتكم ، ولا تحقدوا علىّ أنى كنت أحياناً أقسو عليكم أو أعاقبكم ، فانما كان ذلك لفائدتكم

وبعد . فقوموا يا أولادى ، ودّعوا أباكم الذى لن تلقوه بعد اليوم ... ...

* * *

وخرج صاحبى من المدرسة ، مهدود الجسم ، خائر القوى ، فألقى عليها النظرة الأخيرة . فرآها من خلال دموعه ، مشرقة بهية ، كأنها ماسة تلمع فى شعاع الشمس ، ثم ولّى ... يفكر تفكيراً مضطرباً

* * *

هذه هى حياة المعلم ؛ يغرس غصون الحب فى قلبه فتمزقه بجذورها ، فاذا أزهرت جاءوا فنزعوها من قلبه ، فمزقوه مرة ثانية بنزعها : يأخذ المعلم أولاداً لا يعرفهم ولا يعرفونه ، فلا يزال يجهد فيهم ، ليفهم طبائعهم ، ويألفهم ويحبهم ، ويقوّم اعوجاجهم ويصلح فاسدهم ، حتى إذا أثمر الحب الفائدة وأتى العطف بالمنفعة ، جاء ولاة الأمور فقطعوا بجرّة قلم واحدة هذه الأسباب كلها . وفرقوا بنقطة من حبر بين الأب وأولاده ، لا لشىء . بل لوشاية سافلة أو مؤامرة دنيئة ، أو لاخلاء مكانه ليبوّأه بعض الملتمسين من ذوى الوساطات

وانطلق صاحبنا يهمس فى أذن نفسه :

إنى أشعر بالانحطاط والضعف ، وأحسّ كأنى شمعة قد انطفأت ، لم يكف أنهم أضاعونى وألقونى فى هذا الطرق حتى جعلونى أسبح فيه ، ثم أغوص إلى أعماقه ، بينما يمرح الأدعياء واللصوص بالعيون الصافية ويقطفون وردها وزهرها !

لم يبق لى أمل ... لقد سقطت فى المعركة قبل أن أنال ظفراً ، لقد بعت نفسى ومستقبلى وآمالى بتسعة جنيهات فى الشهر ثمناً لخبز عيالى ... أفكان حراماً أن أجدها من غير هذا الطريق ، ألم يكن بد من أن أموت لأعيش ؟ ..

استغفرك اللهم . فلا اعتراض ولا انتقاد ، ولكنها هى شكوى . أفيخسر المرء ماله فيشكو ، ويفقد حبيبه فيبكى ، ويرى آماله تنهار أمام عينيه ونفسه تذوب وحياته تنضب ومواهبه تذوى ولا يقول شيئاً ؟

إننى أشكو ، ولكن إلى الله ؛ فليس فى الناس من يشكى اليه !

(دمشق) (ع)

(١) كذلك كانت تسمى الصالحية قديماً

صدرت الطبعة السادسة من كتاب :

تاريخ الادب العربى

فى جميع عصوره

بقلم الأستاذ أحمد حسن الزيات

وهذه الطبعة تقع فى زهاء خمسمائة صفحة من القطع المتوسط ، وتكاد — لما طرأ عليها من الزيادة والتنقيح — تكون مؤلفا جديداً

الثمن ٢٠ قرشا عدا أجرة البريد